

**أحياناً نتوقف الساعات في داخلنا فنجمد ، وأحياناً أخرى ندور
بعقاربها عكس الاتجاه فنخلف ، ولكننا في كل الأحيان لم ولن
نملك إعادة الماضي أو استبقاء الحاضر أو إلغاء المستقبل .**

مقدمة الكتاب

الوطن الأكبر أم الوهم الأكبر

التاسع من أبريل للعام الثالث من الألفية الثالثة كان يوماً من أيام الزمان ، ولكنه لم يكن كغيره من الأيام ، فقد كان بمثابة البرهان الساطع والدليل القاطع على وصول الأمة العربية بل والإسلامية إلى أقصى درجات العجز عن تحقيق أبسط آمالها ألا وهو أن تشعر العالم بمجرد وجودها بين الأحياء بعد أن فقدت الأمل في أن تكون أمة مستحقة لاحترام الآخرين .

في صباح هذا اليوم — وكالمعتاد — استرقنا الأسماع واستجلينا الأبصار واستحضرنا المشاعر لكي نتلقف تحية الصباح القادمة من أرض العراق ..من بغداد التي وقف على أرضها نجم نجوم النظام العراقي ألا وهو السيد محمد سعيد الصحاف وزير الإعلام ليعلن بكل العزة والفخار والافتقار عن وصول بعض وحدات القوات الأمريكية (العلوج) إلى مشارف بغداد بل وعن دخول بعضها بالفعل إلى بغداد — ولكنه أردف قائلاً بنفس العزة والفخار والافتقار — أن الأمر برمته تحت السيطرة وأن الأحداث بكاملها تندرج ضمن خطة محكمة مفادها استدراج هؤلاء العلوج إلى داخل بغداد ثم قطع دابرهم وفصلهم عن قيادتهم والتعامل معهم وفق اختيارين لا ثالث لهما فإما الاستسلام وإما الموت الزؤام !! كانت هذه التصريحات على غرابتها تبدو لنا نحن اليائسين المستأنسين وكأنها

طائر أسطوري قادر على حمل الأمة وأحلام شعوبها والتحليق بهما في سماء الأمل ..
الأمل في الكرامة .. الأمل في العزة .. الأمل في الإرادة .. آمال كثيرة لم تكن على وجه
اليقين حباً في نظام البعث ورجاله ولا رغبة في بقائهما ، ولكنها كانت أملاً في سيادة الشرعية
الدولية ورجاءً في انتصار الحق .. حق الشعوب وإرادتها — كل الشعوب — في بلوغ أطوار
جديدة من الرقى تنأى بها عن طور الغابات .. عن الدماء .. عن الأحزان .. عن الضغائن
التي لن ترفع يدها عن العالم إلا وقد صار مسرحاً للعنف والعنف المضاد ، وهى معركة
خارج الحسابات باعتبارها لا تستند إلى أية قواعد أو أسس يمكن الاسترشاد بها في تأكيد أو
حتى توقع من هو الطرف المنتصر ومن هو الطرف الخاسر مهما تباينت موازين القوى ، فهى
أشبه بمعركة بين ملك الغابة وعائلته من جهة وبين مجموعة من الدبابير من جهة أخرى ،
فهل لعاقل أن يدعى مجرد القدرة على توقع من الخاسر في الطرفين ومن المنتصر !!

وعودة أخرى إلى حيث تصريحات نجم نجوم النظام البعثى العراقى التى ما كاد
ينتهى منها ، وما كادت تمر الدقائق التى أحسبها لم تتجاوز الساعة ، وإذا بالعالم يعلن إلى
نفسه بل ينعى إلى نفسه ضياع الكرامة وزوال العزة وانهباء الإرادة وحتمية قبول قوانين
الغابة بل والرضوخ لها بل واعتناقها ، فقد سقطت العراق .. سقطت بغداد بل واستسلمت
ليتملك الجميع حالة من الصمت والدهشة ، فياله من سقوط مفاجئ ، وياله من استسلام
مريب ، وياله من صدمة جعلتني حين خرجت في هذا اليوم من عملي عائداً إلى مسكني
أخطو وكأنني أحمل في رأسي وقلبي جبلاً من الهم والغم والحسرة بل والخجل ، نعم فقد
كنت أشعر بالخجل من أى شخص ينظر لى مصادفة في الطريق العام ، وكأنني أحد
المسؤولين مسئولة مباشرة عن هذه المأساة ، رغم أنني لست حاكماً عربياً أو إسلامياً ، بل
ولست مسئولاً في أى موقع سياسى محلى أو إقليمى أو دولى ، ورغم أنني لم أأخذ موقفاً
سلبياً من الأزمة منذ ولدت ، حيث إنني بادرت بكتابة رؤية سياسية لتفادى الحرب في مطلع
يناير لعام ٢٠٠٣ ولكنها نشرت بصحيفة الوفد في التاسع عشر من فبراير حيث طالبت فيها
بإجراء انتخابات رئاسية حرة في العراق تحت إشراف ورقابة كاملتين تتولاها لجان من الأمم
المتحدة ، وبحيث لا تمثل فيها أطراف الصراع - وحدتها في أمريكا والعراق وإسرائيل -

كما طالبت في مقال لاحق بأن تكون النتائج التي ستسفر عنها هذه الانتخابات أساساً يتم البناء عليه بمجموعة من الإجراءات السياسية والتفاوضية لتجنب الانفجار ، كما كنت قد أرسلت هذه الرؤية برسائل فاكس إلى كل من السيد أمين عام جامعة الدول العربية والسادة سفراء أمريكا وفرنسا وألمانيا في القاهرة ، ولكن شيئاً لم يحدث ، وأحدًا لم يتحرك بما يؤكد أن قرار الحرب كان حتمياً ولا رجعة عنه ولا تفاوض بشأنه وأن السيناريوهات التي كانت مطروحة على الساحة العالمية كانت — عمدًا أو مصادفةً — معدة فقط لكي تخدم الجانب الأمريكي ولو من باب قياس القدرات العسكرية الفعلية للجانب العراقي بل واستنزافها بموجب الرحلات المكوكية لفرق التفتيش ولجانه أو جس نبض الأمة كلها والتعرف على ردود أفعال أنظمتها أو كلا الأمرين معًا ، إلا أن هذا السيناريو هو مجرد توقع إذا ما أكدت الأيام صدقه ، وأكدت أنه كتب وأخرج ونال كل طرف أجره في غيبة متعمدة للشعوب ، لكان لنا مقال آخر يتناسب وهذا الفن الهابط .

إذن فقد سقطت العراق .. بل واستسلمت ، لتضاف إلى قائمة الدول والأراضي العربية والإسلامية المحتلة ، ولكي نفرّد بين دول العالم المعاصر بهذا الوضع المشين والشاذ ، ولكي تضيف إلى رءوسنا وضائرتنا عذاباً موجعاً مزمنًا وإراثًا ثقيلاً لأجيال اليوم والغد غير المؤهلة لحمل الأثقال بالوراثة ، ولكي نصب كعادتنا سرادقات العزاء لتقبل المواسة في جزء جديد من كرامتنا التي راحت شعوب العالم تحتشد وتتظاهر معترضة على من سلبها منا ونحن أهون على أنفسنا وعلى قادتنا من مجرد التظاهر لمعاقبة مذلينا ، ولكي تجعلني هذه الفاجعة أعود للشعر الذي أهملته واعتزلته منذ خمسة عشر عامًا أو يزيد قائلًا :

بغداد إني صرت بعدك واهنًا	وكان جرحك صار ينزف من دمي
مالي أرى عينيكي عنى شاخصة	مالي أرى أذنيكي لاتسمع فمي
هل مت حقًا أم تراها غفوة	أم باطلاً أوحى به المستسلم
إن كان أمر الله فيكي قد نفذ	فلقائنا يوم الحساب الخاتم
فلتصرخي بالحق يا بغدادنا	ولتطلبى عدل الإله الحاكم

فجميعنا طوعاً سنشهد أننا كنا شريكاً في اغتيال آثم
وجميعنا طوعاً سنشهد أنكى كبش الفداء لمارد متقزم

سقطت العراق إذن بل واستسلمت بغداد كى تفيق أنظمة الأمة من غفوتها وكى تفيق
الشعوب من غفلتها وكى نعرف جميعاً ونعترف أننا أمة عجزت عبر عقود طويلة
وممتدة أن تجد لنفسها مكاناً بين الأمم القوية المسموعة القادرة ، عشرات
الأعوام ونحن أمة تعشق الخطابة والخطباء ، بل عشرات القرون ونحن أمة تعتنق
كل المتناقضات.. فنحن نؤمن بالله ولكننا أبعد ما يكون عن شرائعه .. وندعى الكرامة
وجميعنا أذلاء فى أوطاننا.. ونتوهم السيادة ولا نملك أقواتنا ، عقوداً ممتدة وأنظمة متعاقبة
ونحن أمة تتغنى بأعجاد الأسلاف وبالمداد العربى وبالوطن الأكبر ، والحق أننا واهمون
وسنظل واهمون مالم نعرف ونعترف بأن الأسلاف قد ماتوا ، وأننا ورثنا مكانهم
ولم نرث مكانتهم ، ماتوا وتركوا لنا أسفارهم وأحجارهم كى يأتيتها العالم زائراً ويرحل
عنها حائراً متسائلاً : أهؤلاء هم حفدة هؤلاء ؟! .. والحق أننا واهمون وسنظل واهمون
مالم نعرف ونعترف أن المارد العربى لم يكن موجوداً وأن الذى كان موجوداً هو مارد من
زجاج لم يستطع الصمود أمام التحديات أسوة بأقزام شرق آسيا لأنهم أقزام من حديد ،
والحق أننا واهمون وسنظل كذلك مالم نعرف ونعترف أن الوطن الأكبر لا تحققه إرادات
الحكام وإنما تحققه إرادة الشعوب ، فالواقع أننا مجموعة من الدول أشبه بالجزر
المنعزلة التى تتعدد وتختلف من جذورها حتى الفروع فى المصالح والغايات
والأساليب والسياسات بعدد حكامها ومصالح كل منهم وغاياته وأساليبه وسياساته .

سقطت العراق إذن فى التاسع من أبريل ولكن سقوطها لم يكن أكذوبة جرت على
لسان العالم كى نضيفها إلى قائمة أكاذيب أبريل وتندربها وتنضحك عليها ، لم يكن
أكذوبة ولا كابوساً ولا وهماً وإنما حقيقة ستظل طويلاً بكل أطرافها ودلالاتها وأشخاصها
ومسبباتها ونتائجها وخباياها بلاءٌ حاق بالأمة ، بل شر البلاء الذى مهدت له الأمة بكل ما
فيها من عوامل وصور الضعف والتخلف والتبعية ، أمة الإسلام والعروبة التى انفردت
عن سائر الأمم بالمثل القائل « إن شر البلية ما يضحك » .

فلتضحكوا إذن بإقادة الأمة — إن شئتم — ولتضحك شعوبكم فقد وقعت شر البلية يوم التاسع من أبريل الذى شهد الميلاد الرسمى لأول حادثة احتلال فى القرن الواحد والعشرين والتي قد لاتكون الأخيرة ، ولتطيبوا وتطيبوا ساعات نهاركم وليلكم بالتناحر على انتهاءكم لفرق الكرة ونجومها ، وبالتهليل والتهافت على نجحات الرقص ورائدات الغناء الجنسى وأمثالهن وأشباههن من فئات الكسب السريع والأموال القذرة ، ولنجتهد جميعاً فى هدم كل القيود التى أقرتها الشرائع على الحريات تمييزاً وإكراماً لبنى البشر عن بنى الحيوان ، فقد أتنكم أمريكا محررة الشعوب لتقيم بينكم وتقيم فيكم بل وترسخ فى نفوسكم كل معانى الحريات المطلقة التى تم استلهاًم أغلبها من حريات الحيوانات التى تعف عن بعض ما يدعو إليه بنو البشر من حريات .

الإخوة الأحباب عشاق الوطن .. إن ما حدث فى التاسع من أبريل سوف يضيف إلى علوم التاريخ أبعاداً جديدة لم تخطر يوماً ببال شيوخ التأريخ ولا صناعه ، إذ تبعاً لهذا الحدث سوف يجلس أطفال أمريكا وشبابها بل أطفال وشباب الكثير من دول العالم المتعولم — بما فيهم بعض الدول العربية والإسلامية — ليقرأوا فى مقررات التاريخ التى دونتها يد العولمة وأقلامها أن أمريكا فى هذا اليوم قد تمكنت بعون الله وبمساعدة جيشها ومعداته العسكرية وبمساعدة حلفائها من قهر دولة مارقة — هى دولة العراق — لا لشيء سوى تنفيذ رغبة السماء التى حمل أمانتها الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن — وفق ما صرح به فى بعض خطابات — والتى تحضه على نشر قيم الحرية فى نفوس الكافرين بها ، ولما كانت أنظمة الحكم فى البلدان العربية والإسلامية هى أول الكافرين بهذه القيم فقد وعدت أمريكا بتحرير شعوبنا من قيودها ثم أوفت بما وعدت بادئة بغزو العراق ثم إسقاط نظامه ثم احتلاله ثم البقاء فيه بالقوة العسكرية ثم اعتقال رأس النظام بعد مطاردة دامت ما يقرب من تسعة أشهر تمهيداً لمحاكمته عما ارتكبه فى حق العالم من جرائم ثم تصوير كل هذه الانتكاسات البشرية على أنها انتصارات مجيدة لقوى الحق على قوى الباطل ، ولست أدرى أى حق وأى باطل وأية انتصارات ، هل إهدار سيادة الشعوب انتصارات ؟ وهل إزهاق الأرواح بطولات ؟ وهل سفك الدماء وانتهاك الحرمات حق ، إن كانت أمريكا

تسمى هذه الانتكاسات في الحضارة البشرية انتصارات أو بطولات أو حق ، أفلا تتكرم وتفسر لنا المغزى في تهرب ألف من الجنود الأمريكيين من شرف الخدمة ، وألا تفضل وتفسر لنا مبررات إصابة ما يزيد على سبعمائة جندي أمريكي بالأمراض النفسية والاكتئاب ، وألا تتنازل وتفسر لنا الأسباب التي دفعت مايزيد عن ثلاثين جندياً أمريكياً إلى التعبير عن نشوة انتصاراتهم بالانتحار ، ثم ألا نخبرنا عن الأسباب التي تحقن المقاومة العراقية بجمرات متزايدة من كل عقاير الصمود والشجاعة والتضحية وهل إسقاطهم للطائرات وحصدهم للقوات الأمريكية يعنى خوفاً من عودة البعث أم احتفالاً بالحررين ، ثم هلا تفضل السيد بوش وحليفه بلير وحلفاؤهما وأتباعها بتفسير كل صور الانهيار السياسى الذى تحيط بهم في مواجهة شعوبهم ومجالسهم النيابية وأحزابهم السياسية ومواطنيهم؟؟؟

الحق هو أن أمريكا وحلفاءها وأذialها كما تمكنا دائماً من طمس ملامحنا الثقافية والحضارية بكل ما فيها من عقائد وعادات وتقاليدها لأمركة العالم فقد تمكنا كذلك من تحويلنا بشأن محاكمة صدام إلى مجموعة من البيغاوات التى لا عمل لها سوى أن تردد ما تبثه فينا أبواق الإعلام العالمية من سموم الفكر الموجه الذى يخدم أغراض البغى والظلم والطغيان البعيدة كل البعد عن منطق الحق الذى لو أعملنا عقولنا وفق مقتضياته لأدركنا بكل بساطة أن هذه الأبواق تصدر أصواتاً شيطانية تتردد أصدائها في جنبات العالم متمثلة في أبواق إعلام الدول التابعة والخانعة لأسياد العالم لكى تصيب البشرية في نهاية المطاف بحالة من العجز والشلل الفكرى تفضل عن إدراك الحقائق جميعها إلا حقيقة واحدة هى الباطل بعينه ألا وهى أن أمريكا وحلفاءها وظلالها هم رسل الحق وسيوفه وقضاته وهم المنوطون بتنفيذ الأحكام في عالم مراقى لم يبلغ بعد سن الرشد ، والحق أننا سنظل مراقين عابثين ما لم ندرك الحقائق التالية :

(١) أن غزو العراق فى حد ذاته لا يتمتع بأية مشروعية أو مصداقية دولية وبالتالي فهو عمل باطل وباطلة كذلك كل النتائج التى ترتبت عليه قانونياً .

(٢) أن العدالة تقتضى بداية محاكمة كل من ساهم فى غزو العراق ظلماً وقهراً وتحميله

المسئولية الكاملة عن كل ما ترتب على هذا الغزو من دمار للممتلكات ونزيف للجراح وإزهاق للأرواح قد تمتد آثاره السلبية لعدة عقود قادمة .

(٣) أن صدام حسين لا زال هو الرئيس الرسمي — ولأقول الشرعى — لدولة العراق إذ لا يحق لغير الشعب العراقي أن يسقطه من الحكم — أو هكذا نفهم الديمقراطية والحرية وكرامة الشعوب — وبالتالي فإن محاكمة صدام عن جرائمه الداخلية تتطلب أولاً إعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل الغزو ثم إجراء انتخابات رئاسية تحت إشراف لجان دولية يصدر بتشكيلها قرار من الأمم المتحدة ، وبحيث إذا ما أسفرت عن بقاء صدام في الحكم برغبة العراقيين فلا مجال لمحاكمته ، أما إذا أسفرت عن سقوطه برغبة العراقيين فلتتم محاكمته عن جرائمه الداخلية أمام محكمة عراقية .

(٤) أن محاكمة صدام حسين من السخف والسفه اختزالها في شخصه أو في الاختلاف حول مكان المحاكمة أو زمانها أو أحكامها إذ أن لصدام شركاء في جميع جرائمه ذات البعد الدولى ومن العدالة محاكمتهم كل على قدر مشاركته ، إذ من المعلوم للعالم كله أن حربه مع إيران نشأت واستمرت بدعم وتأييد كاملين من أغلب الأنظمة العربية بل ومن بعض الدول الغربية وعلى رأسها أمريكا، حيث كانت الأنظمة العربية في أغلبها تخشى على أбудيتها في الحكم من نجاح الثورة الإسلامية الإيرانية وما تحمله من دلالات وإشعاعات كما كانت أمريكا وحلفاؤها الغربيون يخشون من هذا المد الثورى الإسلامى الذى قد يتعارض مع مصالحهم العديدة في المنطقة كما قد يهدد أمن إسرائيل الجاثمة قهراً فوق أرض عربية إسلامية ، هذا عن إيران وأما عن غزو الكويت فهو جريمة لم يختلف أحد حول مسئولية صدام الكاملة عنها مالم يكن له شركاء مجهولون !!

(٥) أن هذا الإلحاح الإعلامى على اعتقال صدام ومحاكمته قد تجاوز بنا - في غفلة منا- العديد من القضايا التى كانت وينبغى أن تظل في بؤرة اهتمامنا ، إذ أن ثمة تساؤلات لا ندرى لها إجابات منطقية رغم مرور ما يقرب من عام على الغزو وما ترتب عليه من أحداث ، إذ لا ندرى كيف استسلمت بغداد في هذا الزمن القياسى ، وإن كان ثمة خيانة فأين المعدات الحربية العراقية الثقيلة بدءاً من الطائرات ومروراً بالدبابات والعربات

المصفحة والمدركات والمدفعية ، وإذا كانت هذه المعدات قد أخفيت أو هربت فأين وكيف تم هذا في تلك اللحظات القليلة ، ثم ما هي طبيعة المقاومة العراقية وما هي قدراتها وما هي أهدافها الحقيقية ، ثم ما مدى تمسك الشعب العراقي كله أو بعضه بصدام حسين الذى أتوقع أنه يمتلك من القدرات القيادية كماً هائلاً وإلا لما استطاع تحمل سظف الحياة وقسوتها طيلة هذه الشهور حيث كان من الأسر عليه تماماً أن يهرب إلى خارج البلاد مع بداية الغزو ولكنه أبى إلا البقاء بين شعبه إلى آخر لحظة على عكس ما يتردد من تصورات تهدف إلى إظهاره بما ليس فيه من صفات الجرذان ، ثم ما هي طبيعة العلاقة بين القادة الأمريكيين وبين نجم النجوم البعثيين (محمد سعيد الصحاف) الذى كان آخر من وقف على أرض بغداد ، كما كان من أول المسؤولين الذين أمسكت بهم سلطة الاحتلال ، كما أنه الوحيد الذى لم يعتقل وتم الإفراج عنه باعتباره ليس من رجال القيادة البعثية الصدامية .. كيف؟؟ الله أعلم !!

وبيت القصيد أيها الإخوة أن محاكمة صدام لن تكون عادلة ما لم تشمل العديد من زعماء وقادة وأنظمة الكثير من دول العالم ، فهل يمتلك هؤلاء القادة من الشجاعة — وأغلبهم مازال على قيد الحياة ومنهم من لم يزل في مقاعد الحكم — ما يؤهلهم لقبول العدالة التى يرونها — جنباً وهدراً ورباءً — فى تحميل صدام منفرداً بكل أوزار البشرية من لدن آدم وإلى قيام الساعة ، هل يستطيع هؤلاء أن يمثلوا أمام القضاء ليقول كلمته الحق أننى لا أظن منهم أحداً قادراً أو مالكاً لهذه الشجاعة وإلا لما كان هذا هو موقفهم من الغزو ومن مجلس الحكم العراقي ومن اعتقال صدام ومحاكمته ، ولكنه الواقع الذى سيكتبه التاريخ مفنداً إياه بالحقائق ، فإن لم يفعل التاريخ فسوف يفعل خالق التاريخ والجغرافيا بعد أن تغنى الأرض بتاريخها وجغرافيتها وتنعقد المحاكمة التى لا يأتيها الباطل من بين أيديها ولا من خلفها ولا عن أيمانها ولا عن شائليها ولا من فوقها ولا من تحتها .. إنها العدالة المطلقة التى حرمتنا منها الدنيا بكل ما فيها من قوانين محلية وإقليمية ودولية وبكل ما فيها من مصالح تتلون بحسب أهوائنا ولغائنا وألواننا ومعتقداتنا .. إنها عدالة الواحد الأحد الفرد الصمد الذى حسبنا غافلاً عنا فراق لنا أن نتهاذى فى الظلم فأمهلنا وأمهلنا لكننا أبينا إلا الظلم:

يا بارئ الأكوان كم كرمتنا ورفعتنا فوق الكثير من البرى
بشرائع فيها العدالة غاية لا فضل فيها للنجوم على الثرى
لكننا شئنا شريعة غابة من رام فيها الستر فليتنمر

إخوة الوطن .. حين يصلكم هذا الكتاب فقد يكون غزو العراق وما تقيأه من أحداث قد تطورت عما هو وارد في هذه المقدمة وقد تكون هذه الأحداث قد تجمدت وفي كلتا الحالتين فإننى لكل الاعتبار السابقة أرجح أن صدام لن يحاكم محاكمة عادلة ، كما أرجح أن قادة العالم العربى والغربى سيتخذون في كواليس السياسة العالمية هذا القرار دون إعلان مسرحيًا ، ولكننى لا أعنى بذلك أن العالم سيسمح لصدام بالعودة للحكم ولكنه سيبحث له عن مخرج — ولو بالموت — تجنبًا لمحاكمته التى إن أقيمت بعدالة لكنت تعنى محاكمة عشرات الأنظمة — رءوسًا وأذيالاً — وهو أمر مستحيل ، وفي كل الأحوال فإن ذلك لن يغير من منهج هذا الكتاب فى شىء ، حيث أراه حتميًا للأمة التى ستظل وفق معطيات واقعها فى حاجة إلى أطواق للنجاة اللهم إلا فى حالة واحدة ألا وهى أن يصدر هذا الكتاب بعد أن تكون الأمة قد غرقت غرقًا تامًا ، وهو ما لا أعنى به موتها بالمعنى الدارج ولكننى أعنى انتقالها إلى حياة أخرى فى أعماق بحر العولمة الهائج المائج بكل ما فيه من خصوصيات أهمها أن يستمد الأقوى والأكبر بقاءه من فناء الأضعف والأصغر ، وحيث أننا سنكون الأصغر والأضعف فى هذه الحياة فلا مفر من أن نقبر فى بطون حيتانها وقروشها .

إخوة الوطن المأمول الذى توهمه البعض واستثمره البعض وبناء البعض فوق الرمال المتحركة : دعونا نقول أنه لا يوجد وطن ولا يوجد مارد عربى أو إسلامى ، وأنها لن يوجد ما لم تتوافر مقومات وجودهما ، وهو ما أسعى إليه فى كتابى هذا عبر حزمة من الرؤى والسياسات المتكاملة التى أسأل الله أن ينفعنا بها .. والله الموفق .